الباب السادس والخمسون

فى معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى، قال: أخبرنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزينى، قال: أخبرنا كريمة المروزية قالت: أخبرنا أبو الهيثم الكشميهينى قال: أخبرنا أبو عبد الله الفربرى، قال: أخبرنا أبو عبد الله البخارى قال: حدثنا عمر بن حفص قال: حدثنا أبى، قال حدثنا الأعمش، قال: حدثنا زيد بن وهب قال: حدثنا عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما: نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات فيكتب: عمله، وأجله، ورزقه، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار» [١]

وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [٢] أى: حريز، لاستقرارها إلى بلوغ أمدها، ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [٣] قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه.

واعلم أن الكلام فى الروح صعب المرام. والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام. وقد عظّم الله شأن الروح، وأسجل على الخلق بقلّة العلم حيث قال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [٤].

وقد أخبرنا الله تعالى فى كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ﴾ [٥].

---

(١) متفق عليه

(٢) آية رقم ١٣ من سورة المؤمنون.

(٣) آية رقم ١٤ من سورة المؤمنون.

(٤) آية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

(٥) آية رقم ٧٠ من سورة الإسراء.

وروى أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة: يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال: وعزتى وجلالى لا أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان.

ومع هذه الكرامة، واختياره سبحانه وتعالى إيَّاهم على الملائكة لمَّا أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الروح مِن أَمْرِ رَبى...﴾ الآية [(١)].

قال ابن عباس: قالت اليهود للنبى ﷺ: أخبرنا ما الروح؟ وكيف تعذب الروح فى الجسد وإنما الروح من أمر الله؟

ولم يكن نزل إليه فيه شيء. فلم يجبهم.. فأتاه جبريل بهذه الآية.

وحيث أمسك رسول الله ﷺ عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة، فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه..

لا جرم، لَما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطلعة إلى الفضول، المتشوفة إلى المعقول، المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه، والمتسورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه، وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت فى التيه، وتنوَّعت آراؤها فيه، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شىء كالاختلاف فى ماهية الروح.

ولو لزمت النفوس حدَّها، معترفةً بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى.

فأمَّا أقاويل من ليس متمسكًا بالشرائع فتتنزه الكتاب عن ذكرها، لأنها أقوال أبرزتها العقول التى ضلَّت عن الرشاد وطبعت على الفساد، ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء، فهم كما قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنهمْ فِى غِطَاء عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لاَ يَستطيعُونَ سَمْعًا﴾[(٢)] ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَاَ فِى أَكِنَّة مِماَّ تَدْعُونَا إِليهِ وفِى آذانِناَ وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وبَيْنكَ حِجَابٌ﴾[(٣)].

---

(١) آية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

(٢) آية رقم ١٠١ من سورة الكهف.

(٣) آية رقم ٥ من سورة فصلت.

فلما حجبوا عن الأنبياء لم يسمعوا، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا، فأصروا على الجهالات، وحجبوا بالمعقول عن المأمول، والعقل حجة الله تعالى يهدى به قومًا ويضل به قومًا آخرين. فلم ننقل أقوالهم فى الروح واختلافهم فيه.

أما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا فى الروح. فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد، لا باستعمال الفكر. حتى تكلم فى ذلك مشايخ الصوفية أيضا. وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبى ﷺ.

وقد قال الجنيد: الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه، ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من «موجود»، ولكن نجعل للصادقين محملاً لأقوالهم وأفعالهم.

ويجوز أن يكون كلامهم فى ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة، حيث حرّم تفسيره وجوز تأويله. إذ لا يسع القول فى التفسير إلاّ نقلٌ، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل، وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فللقول فيه وجه ومحمل.

قال أبو عبد الله النباحى: الروح جسم يلطف عن الحس، ويكبر عن اللمس، ولا يعبَّر عنه بأكثر من «موجود» وهو وإن منع عن العبارة، فقد حكم بأنه جسم، فكأنه عُبِّر عنه.

وقال ابن عطاء الله: خلق الله الأرواح قبل الأجساد، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى الأرواح ﴿ثُمَّ صَوَّرناكُم﴾ يعنى الأجساد.

وقال بعضهم: الروح لطيف قائم فى كثيف، كالبصر جوهر لطيف، قائم فى كثيف، وفى هذا القول نظر.

وقال بعضهم: الروح عبارة، والقائم بالأشياء هو الحق. وهذا فيه نظر أيضا، إلاّ أن يحمل على معنى الإحياء. فقد قال بعضهم: الإحياء صفة المحيى، كالتخليق صفة الخالق وقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبى﴾ [١] . وأمره كلامه.

وكلامه ليس بمخلوق: أى صار الحىّ حيًا بقوله: كن حيًا.

وعلى هذا لا يكون الروح معنًى فى الجسد.

فمن الأقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح. ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه.

---

(١) آية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

ثم إن الناس مختلفون فى الروح الذى سئل رسول الله ﷺ فقال قوم: هو جبرائيل.

ونقل عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ولكل وجه منه سبعون ألف لسان، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة.

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: أن الروح خلقٌ من خلق الله، صُورهم على صورة بنى آدم، وما نزل من السماء ملَك إلا ومعه واحد من الروح.

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان، وليسوا بناسٍ.

وقال مجاهد: الروح على صورة بنى أدم، لهم أيد، وأرجل، ورءوس، يأكلون الطعام وليسوا بملائكة.

وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبُلغ السموات والأرضين السبع فى لقمة لفعل، صورةُ خلقه على صورة الملائكة، وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش، والملائكة معه فى صفّ واحد. وهو ممن يشفع لأهل التوحيد. ولو لا أن بينه وبين الملائكة سترًا من نور لحرق أهل السموات من نوره.

فهذه الأقاويل لا تكون إلاّ نقلاً وسماعًا، بَلَغَهم عن رسول الله ﷺ ذلك.

وإذا كان الروح المسئول عنه شيئًا من هذا المنقول فهو غير الروح الذى فى الجسد، فعلى هذا يسوغ القول فى هذا الروح، ولا يكون الكلام فيه ممنوعًا.

وقال بعضهم: الروح لطيفة تسرى من الله تعالى إلى أماكن معروفة لا يعبّر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره.

وقال بعضهم: الروح لم يخرج من «كن» لأنه لو خرج من «كن» كان عليه الذل، قيل: فمن أى شىء خرج؟ قال: من بين جماله وجلاله سبحان وتعالى بملاحظة الإشارة خصًّا بسلامه، وحَيّاها بكلامه، فهى معتقة من ذلّ «كن»

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح: مخلوقة هى؟ قال: نعم، ولولا ذلك ما أقررتْ بالربوبية حيث قال: (بلى)، والروح هى التى قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلاً لا حجة عليه ولا له.

وقيل: إنها جوهر مخلوق، ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر، وأنورها، وبها تتراءى المغيبات، وبها يكون الكشف لأهل الحقائق.

وإذا حجبت الروح عن مراعاة السَّير أساءت الجوارح الأدب، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار، وقابض ونازع، وقيل: الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء.

وقيل: الأرواح أقسام: أرواح تجول فى البرزخ، وتُبصر أحوال الدنيا والملائكة، وتسمع ما تتحدث به فى السماء عن أحوال الآدميين، وأرواحٌ تحت العرش، وأرواح طيارة إلى الجنان، وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعى إلى الله أيام الحياة.

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان، قال: أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض، حتى يردّها إلى جسدها.

وقيل: إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا، وتحدثوا، وتساءلوا، ووكل الله بها ملائكة، تعرض عليها أعمال الأحياء، حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا: نعتذر إلى الله ظاهرًا عنه؛ فإنه لا أحد أحبُّ إليه العذرَ من الله تعالى.

وقد ورد فى الخبر عن النبى ﷺ: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضًا وإشراقًا فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم»[1].

وفى خبر آخر: «إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى، فإن كان حسنًا استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها[2] أعيان فى الجسد، وليست بمعان وأعراض.

سئل الواسطى: لأى علّة كان رسول الله ﷺ أحلم الخلق؟

قال: لأنه: خُلِق روحُه أولاً، فوقع له صحبة التمكين والاستقرار، ألاّ تراه يقول: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد» أى: لم يكن روحًا ولا جسدًا.

وقال بعضهم: الروح خلق من نور العزة، وإبليس من نار العزّة، ولهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[3] ولم يدر أن النور خير من النار، فقال بعضهم: قَرن الله تعالى

---

(١) رواه الترمذى ووثقه ابن حبان

(٢) أى الروح.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢.

العلمَ بالروح؛ فهى للطافتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء، وهذا فى علم الله، لأن عِلم الخلق قليل لا يبلغ ذلك.

والمختار عند أكثر متكلمى الإسلام: إن الإنسانية والحيوانية عرضان خُلقا فى الإنسان، والموت يعدمهما..

وأن الروح هى الحياة بعينها، صار البدن بوجودها حيًا: وبالإعادة إليه فى القيامة يصير حيًا.

وذهب بعض متكلمى الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر، وهو اختيار «أبى المعالى الجوينى».

وكثير منهم مال إلى أنه عَرض، إلاَّ أنه ردهم عن ذلك الأخبارُ الدالة على أنه جسم؛ لِما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد فى البرزخ؛ فحيث وُصف بأوصافٍ دلَّ على أنه جسم؛ لأن العَرَض لا يوصف بأوصاف؛ إذ الوصف معنى، والمعنى لا يقوم بالمعنى. واختار بعضهم أنه عرض.

سئل ابن عباس رضى الله عنهما، قيل: أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان؟ فقال: أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان، قيل له: فأين تذهب الجسوم إذا بليت؟ قال: فأين يذهب لحمها إذا مرضت؟!

وقال بعض من يُتهم بالعلوم المردودة المذمومة ويُنسب إلى الإسلام: الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف.

وقال بعضهم: إنها إذا فارقت البدن تحلّ معها القوة الوهمية بتوسط النطقية، فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات، لأن تجردها من هيئات البدن عند المفارقة غير ممكن، وهى عند الموت شاعرة بالموت، وبعد الموت متخلية بنفسها مقبورة، وتتصور جميع ما كانت تعتقده فى حال الحياة. وتُحِسُّ بالثواب والعقاب فى القبر، وقال بعضهم: أسلم المقالات أن يقال: الروح شىء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن ما دام متصلاً به، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد، كما أن الجسد بمفارقته يذوق الموت؛ فإن الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر فى شعاع الشمس.

ولمّا رأى المتكلمون أنه يقال لهم: الموجودات محصورةٌ: قديم، وجسم، وجوهر، وعرض، فالروح من أىّ هؤلاء؟.

فاختار قوم منهم أنه عرض، وقوم منهم أنه جسم لطيف كما ذكرنا، واختار قوم أنه قديم لأنه أمر، والأمر كلام، والكلام قديم.. فما أحسن الإمساكَ عن القول فيما هذا سبيله.

وكلام الشيخ أبى طالب المكى فى كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان فى الجسد.. وهكذا النفوس؛ لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير، ومن حركتها يظهر نور فى القلب يراه الملك فيُلْهم الخير عند ذلك، وتتحرك للشرِّ ومن حركتها تظهر ظلمة فى القلب، فيرى الشيطان الظلمة فَيُقْبل بالإغواء.

وحيثُ وجدتُ أقوالُ المشايخ تشير إلى الروح أقول: ما عندى فى ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به؛ إذ ميلى فى ذلك إلى السكوت والإمساك، فأقول والله أعلم:

الروح الإنسانى العلوى السماوى من عالم الأمر، والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق، والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده، والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحسّ والحركة، ينبعث من القلب، أعنى بالقلب هاهنا: المضغة اللحمية المعروفة الشكل، المودعة فى الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب، وهذه الأرواح لسائر الحيوانات، ومنه تفيض قوى الحواس، وهو الذى قوامه بإجراء سنّة الله بالغذاء غالبًا، ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط، ولورود الروح الإنسانى العلوى على هذا الروح تجنّس الروح الحيوانى وما بين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى فصار نَفسًا محلاً للنطق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] فتسويتها بورود الروح الإنسانى عليها، وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوى وصار تكونّ النفس التى هى الروح الحيوانى من الآدمى من الروح العلوى فى عالم الأمر، كتكوّن حواء من آدم فى عالم الخلق.

وصار بينهما من التألف والتعاشق كما بين آدم وحواء، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2] فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنسانى العلوى إلى الروح الحيوانى وصيره نفْسًا، وتكوّن من

(١) آية رقم ٨ من سورة الشمس.

(٢) آية رقم ١٨٩ من سورة الأعراف.

سكون الروح إلى النفس القلبُ، وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق. وهذه اللطيفة من عالم الأمر.

وكان تكوّن القلب من الروح والنفس فى عالم الأمر كتكوّن الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق، ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكوّن القلب، فمن القلوب قلب متطلّع إلى الأب الذى هو الروح العلوى ميال إليه، وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله ﷺ فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق، وقلب مصفّح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان. فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدّها القيح والصديد، فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها».

والقلب المكنوس ميال إلى «الأم» التى هى النفس الأمارة بالسوء.

ومن القلوب قلب متردد فى ميله إليها، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة.

والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه، وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البارّ، والزوج للزوجة الصالحة، وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة، فمنكوس من وجه، ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه؛ إذ لابد له منهما.

وقول القائلين واختلافهم فى محل العقل؛ فمن قائل إن محله الدماغ، ومن قائل إن محله القلب، كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك، واختلافهم فى ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد، وانجذابه إلى البارّ وإلى تارة وإلى العاق أخرى، وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق، فإذا رؤى فى تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ وإذا رؤى فى تدبير البار قيل مسكنه القلب.

فالروح العلوى يهم بالارتفاع إلى مولاه شوقًا وحنوا وتنزهًا عن الأكوان، ومن الأكوان: القلب والنفس فإذا ارتقى الروح يحنو القلب إليه حنوّ الولد الحنين البارّ إلى الوالد، وتحنّ النفس إلى القلب الذى هو الولد حنين الوالدة الحنينة إلى ولدها، وإذا حنَّتْ النفس ارتقت من الأرض، وانزوت عروقها الضاربة فى العالم السفلى، وانطوى هواها، وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا، وتجافت عن دار الغرور، وأنابت إلى دار الخلود وقد تخلد النفس

التى هى الأم إلى الأرض بوضعها الجبلىّ، لتكوّنها من الروح الحيوانى المجنّس ومستندها فى ركونها إلى الطبائع التى هى أركان العالم السفلى. قال الله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لرفعناه بِهَا وَلَكِنَّه أَخْلَد إلى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[1].

فإذا سكنت النفس التى هى الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميّال إلى الوالدة المعوّجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم.

وتنجذب الروح إلى الولد الذى هو القلب لِما جُبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده، فعند ذلك يتخلّف عن حقيقة القيام بحق مولاه، وفى هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان: أين موضع العقل منك؟ قال: القلب؛ لأنه قالب الروح والروح قالب الحياة.

وقال أبو سعيد القرشىّ: الروح روحان: روح الحياة، وروح الممات؛ فإذا اجتمعا عقل الجسم وروح الممات هى التى إذا خرجت من الجسد يصير الحىّ ميتًا، وروح الحياة ما به مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما.

وقال بعضهم: الروح نسيم طيّب يكون به الحياة، والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات.

ويقال: فلان حارُّ الرأس. وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى ما يظهر من آثارها من الأفعال المذمومة والأخلاق المذمومة، وهى التى تعالج بحسن الرياضة إزالتها وتبديلها، والأفعال الرديئة تزال، والأخلاق الرديئة تبدّل.

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى، قال: أخبرنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى، قال أخبرنا القاضى محمد بن سعيد «الفرخزادى» قال أخبرنا أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال: أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفيانى قال حدثنا محمد بن اليقطينى، قال حدثنا أحمد بن عبدالله بن يزيد العقيلى، قال حدثنا صفوان بن صالح، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، عن أبى لُهيعة عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ

---

(١) آية رقم ١٧٦ من سورة الأعراف.

هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[1] وقف، ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها، وزكّها أنت خير من زكّاها».

وقيل: النفس لطيفة مودعة في القالب، منها الأخلاق والصفات المحمودة، كما أن العَين محل الرؤية، والأذنَ محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق، وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة، والروح محل الأوصاف المحمودة، وجميعُ أخلاق النفس وصفاتها من أصلين: أحدهما الطيش، والثاني الشره، وطيشها من جهلها، وشرها من حرصها. وشُبِّهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أمْلَس مُصوّب، لا تزال متحركةً بجبلّتها ووضعها.. وشُبّهتْ في حرصها بالفراش الذي يُلقىَ نفسه على ضوء المصباح، ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه.

فمن الطيش توجد العجلة، وقلةُ الصبر، والصبرُ جوهر العقل، والطيش صفة النفس، وهواها وروحها لا يغلبه إلا الصبر؛ إذ العقل يقمع الهوى.

ومن الشره يظهر الطمع والحرص، وهما اللذان ظهرا في آدم حيث طمع في الخلود، فحرص على أكل الشجرة.

وصفات النفس لها أصول من أصل تكوّنها، لأنها مخلوقة من تراب، ولها بحسبه وصف، وقيل وصف الضعف في الآدميّ من التراب، ووصف البخل فيه من الطين، ووصف الشهوة فيه من الحمأ المسنون، ووصف الجهل فيه من الصلصال.

وقيل: قوله (كَالْفَخَّارِ) فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار في الفخار؛ فمن ذلك: الخداع، والحيل، والحسد.

فمن عرف أصول النفس وجبلاّتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها.

فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبِّر دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل، وهو رعاية طرفيّ الإفراط والتفريط ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه، ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة.

وكمال إنسانيته يتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك، ثم تنكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوبية، من: الكبر والعزّ، ورؤية النفس، والعجب.. وغير ذلك.

---

(١) آية رقم ٩ من سورة الشمس.

فيرى أن صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية.

والله تعالى ذكر «النفس» فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف:

بالطمأنينة، قال ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾(١).

وسمّاها لوّامة، قال: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(٢).

وسمّاها أمّارة، فقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(٣).

وهى نفس واحدة.. ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينة خَلع على النفس خِلع الطمأنينة؛ لأن السكينةَ مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين.

وعند توجّه القلب إلى محل الروح تتوجّه النفس إلى محل القلب، وفى ذلك طمأنينتها.

وإذا انزعجت من مقارٍّ جبلاتها ودواعى طبيعتها متطلعةً إلى مقار الطمأنينة فهى لوّامة؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة، ثم انجذابها إلى محلها التى كانت فيه أمّارة بالسوء.

وإذا أقامت فى محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة، فهى على ظلمتها أمارة بالسوء.

فالنفس والروح يتطاردان؛ فتارة يملك القلب دواعى الروح، وتارة يملكه دواعى النفس.

وأمّا السرّ فقد أشار القوم إليه. ووجدت فى كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف.

وقالوا: السرّ محل المشاهدة، والروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة.

والسرّ الذى وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور فى كتاب الله. وإنما المذكور فى كلام الله الروحُ والنفسُ وتنوّع صفاتها، والقلب، والفؤاد، والعقل.

وحيث لم نجد فى كلام الله تعالى ذكرَ السرّ بالمعنى المشار إليه، ورأينا الاختلاف فى القول فيه، وأشار قوم إلى أنه دون الروح، وقوم إلى أنه ألطف من الروح، فنقول-والله أعلم-:

الذى أسموه سرًّا ليس هو بشىء مستقل بنفسه؛ له وجود وذات كالروح والنفس..

---

(١) آية رقم ٢٧ من سورة الفجر.

(٢) آية رقم ٢ من سورة القيامة.

(٣) آية رقم ٥٣ من سورة يوسف.

وإنما لما صفت النفس وتزكت، انطلق الروح من وثائق ظلمة النفس، فأخذ فى العروج إلى أوطان القرب، وانتزح القلب عند ذلك عن مستقره متطلعًا إلى الروح، فاكتسب وصفًا زائدًا على وصفه، فانعجم على الواجدين ذلك الوصف، حيث رأوه أصفى من القلب فسموّه سرًّا.

ولمّا صار للقلب وصف زائد على وصفه، بتطلعه إلى الروح، اكتسب وصفًا زائدًا فى عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرًّا:

والذى زعموا أنه ألطف من الروح: روح متصفة وصف أخصّ مما عهدوه.

والذى سموه قبل الروح سرًّا: هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه.

وفى مثل هذا التّرقّى من الروح والقلب تترقّى النفس إلى محل القلب، وتنخدع من وصفها فتصير نفسًا مطمئنة ترتد كثيرًا من مردات القلب من قبل. إذ صار القلب يريد ما يريده مولاه، متبرئا عن الحول والقوة والإرادة والاختيار، وعندها ذاق طعم صرف العبودية؛ حيث صار حرًا عن إرادته واختياراته.

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان.

وقد ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له اقعد، فقعد، ثم قال له: انطلق فنطق، ثم قال له: اصمت، فصمت، فقال: وعزتى وجلالى وعظمتى وكبريائى، وسلطانى، وجبروتى ما خلقت خلقا أحبَّ إلىّ منك ولا أكرم علىّ منك، بل أعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك آخذ، وبك أعطى، وإيّاك أعاتب، ولك الثواب وعليك العقاب، وما أكرمتك بشىء أفضل من الصبر»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام «لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقله عقله»[2].

وسألت عائشة رضى الله عنها النبىّ ﷺ قالت: قلت يا رسول الله: بأى شىء يتفاضل الناس؟ قال: «بالعقل فى الدنيا والآخرة، قالت: قلت: أليس يُجزى الناس بأعمالهم؟ قال: يا عائشة، وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل، فبقدر عقولهم يعملون، وعلى قدر ما يعملون يجزون».

---

(١) رواه الديلمى والطبرانى.

(٢) رواه الترمذى.

وقال عليه الصلاة والسلام «إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى، وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وإن الرجل ليأتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلاً، قيل: وكيف يكون أحسنهما عقلا؟ قال: أورعهما عن محارم الله، وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع».

. وقال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشتاتًا، فإن الرجلين يستوى علمهما وبرّهما وصومهما، وصلاتهما، ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذّرة فى جنب أحد..» [1].

وروى عن وهب بن منبه أنه قال: إنى أجد فى سبعين كتابًا أن جميع ما أُعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله ﷺ كهيئة رملةٍ وقعت من بين جميع رمال الدنيا.

واختلف الناس فى ماهية العقل. [والكلام فى ذلك يكثر، ولا نؤثر نقل الأقاويل، وليس ذلك من غرضنا]. فقال قوم: العقل من العلوم؛ فإنَّ الخالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل، وليس العقل جميع العلوم، فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل.

وقالوا: ليس من العلوم النظرية، فإن من شرط ابتداء النظر تقدّم كمال العقل، فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها، فإن صاحب الحواس المختلة عاقل، وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية.

وقال بعضهم: العقل ليس من أقسام العلوم؛ لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا. ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلاً.

وقالوا: هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم.

ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى، وهو من أجلّ المشايخ، أنه قال: العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم.

وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل: أنه لسان الروح؛ لأن الروح من أمر الله، وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها، ومنها يفيض نور العقل، وفى نور العقل تتشكل العلوم؛ فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب، وهو بصفته

---

(١) رواه ابن حبان.

منكوس متطلع إلى النفس تارة، ومنتصف مستقيم تارة؛ فمن كان العقل فيه منكوسًا إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء.

ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيَّد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب، واهتدى إلى المكوِّن، ثم عرف الكوّن بالمكوّن، مستوفيًا أقسام المعرفة بالمكوّن والكون، فيكون هذا العقل عقل الهداية.

فما أحبَّ الله إقباله فى أمر دلّه على إقباله عليه. وما كرهه الله فى أمرٍ دلّه على الإدبار عنه، فلايزال يتبع محابَّ الله تعالى ويجتنب مساخطه.

وكلما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن الغىّ.

وقال بعضهم: العقل على ضربين: ضرب يبصر به أمر دنياه، وضرب يبصر به أمر آخرته. وذكر أن العقل الأول من نور الروح، والعقل الثانى من نور الهداية، فالعقل الأول موجود فى عامة ولد آدم، والعقل الثانى موجود فى الموحدين مفقود من المشركين.

وقيل: إنما سُمى العقل عقلاً؛ لأن الجهل ظلمة، فإذا غلب النور بصره فى تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقالاً للجهل.

وقيل: عقل الإيمان مسكنه فى القلب، ومتعمله[1] فى الصدور بين عينى الفؤاد.

والذى ذكرناه من كون العقل لسان الروح — وهو عقل واحد — ليس هو على ضربين، ولكنه إذا انتصب، واستقام تأيَّد بالبصيرة، واعتدل، وَوَضع الأشياء فى مواضعها.

وهذا العقل هو الفعل المستضىء بنور الشرع؛ لأن انتصابه واعتداله هَدَاهُ إلى الاستضاءة بنور الشرع، لكون الشرع ورد على لسان النبى المرسل، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية، ومكاشفة بصيرته التى هى للروح بمثابة القلب، بقدرة الله وآياته، واستقامة عقله بتأييد البصيرة، فالبصيرة تحيط بالعلوم التى يستوعبها العقل، والتى يضيق عنها نطاق العقل؛ لأنها تُستمد من كلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها.

والعقل ترجمان تؤدى البصيرة إليه من ذلك شطرًا، كما يؤدى القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر، ببعضه دون اللسان.

ولهذا المعنى من جَمُد على مجرّد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظى بعلوم الكائنات التى هى من الملك، والملك ظاهر الكائنات.

---

(١) متعمله أى مكان عمله.

ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيّد بالبصيرة فاطّلع على الملكوت، والملكوت باطن الكائنات، اختُص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول.

وقد قال بعضهم: إن العقل عقلان: عقل للهداية مسكنه فى القلب، وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعلمه فى الصدر بين عينى الفؤاد.

والعقل الآخر مسكنه فى الدماغ، ومتعمله فى الصدر بين عينى الفؤاد.

فبالأول يدبّر أمر الآخرة، وبالثانى يدبّر أمر الدنيا، والذى ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيّد بالبصيرة دبّر الأمرين. وإذا تفرّد دبّر أمرًا واحدًا. وهو أوضح وأبين.

وقد ذكرنا فى أول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والأمّارة ما يتنبه الإنسان به على كونه عقلاً واحدًا مؤيدًا بالبصيرة تارةً، ومنفردًا بوصفه تارة. والله الملهم للصواب.